قصة مصرية

الجندى المجهول

بقلم الاستاذ محمد السيد

من منا ينسى ، تلك الايام الحلوة المريرة ، وما كانت تحمل لنا نحن أبناء مصر من مجد في عذاب ، وغبطة فى يأس .

بلى — من ينسى تلك الأيام حين كان يصبح أحدنا أو يمسى فلا يقع نظره إلا على تلك الرؤيا المحبوبة المؤلمة . رؤيا المظاهرات ، أو رؤيا الجنازات فى مشهد المظاهرات ؟

وأية روعة لا تشملك ، وأى فتون لايحتويك ، حين تلمس ذلك الروح المقدس الوثاب ، يفيض عنه ذلك الحماس الدافق ، فيثير فى نفسك شتى الهواجس ، ويحيى فيها موات الأمل ؟

بلى — أية غبطة وأى سرور .... أن ترى تلك الاحلام اللذيذة ، والخيالات البراقة والامور الساحرة من الحرية . . . ومن السعادة التى كنت تنشد وتتمنى — وقد تحققت . . . أو هى على وشك أن تدنو منك ، وأن تحسها بنفسك وروحك بل تلمسها بيمينك ، وتقبض عليها بكلتا يديك ، وأية قسوة ويأس فى أن يفتح الوالد عينيه ، فيرى أبناءه يلبون داعى الموت جميعا — بل وأية رأفة أو قنوط فى أن يرى الآباء أبناءهم يجيبون نداء الوطن جماعات جماعات ، ويتراكضون فى سبيل المجد والفناء أفواجا أفواجا . لكن من الذى يستطيع أن يحدثنى عن حديث تلك المرأة التى لم توجل ، حين ألقى فى روعها أن وحيدها العزيز قد مات ، فلم تدمع عيناها ، ولا اضطرب فؤادها؟

هذا الروح القوى الوثاب ، وهذا الحماس الرائع ، كان يزيد فى بهائها ورونقها . . . ما أصيبت به مصر من الخمود والركود مدى أعوام الحرب جميعا . على أن الحق أن الوطنية المصرية لم تستسلم لهذه الظواهر ، ولكنها لانت أمام العاصفة — فلما سلمت من أذاها ، وأيقنت أن الساعة قد آذنت ، هبت تنادى بنيها بقلب ثابت ، وإيمان متوافر « إن فى ساحة المجد متسعا للجميع » .

وياالله أية حكمة كانت تطلب ، بل أية فائدة ترجى — فى أن تفوز مصر ، مصر المسالمة ، ومعركة الحرب ما تزال متقدة والبلاد تزخر بملايين الأجناد ؟

الحق أيها الناس أن الوطنية المصرية لم يعتورها الخمود ، ولا هي اطمأنت للخسف والعذاب ، لكنها انتظرت ، فلما دنت الساعة وآذن الحق تمخض عن تلكم النهضة المباركة ، فتدافع في الميدان أولئكم الأبطال ، وتزاحموا على حوض الموت يترعون كأسه ، أولئكم الأشبال ، الذين آذنوا الجنود بحرب رخصت فيها المهج ، وبيعت الأنفاذ ، أو يؤمن الناس على مصر ، وأنها جديرة بمكانها تحت الشمس .

***

وفي تلك الأيام احتسب « آل القاياتي » في عزيز لديهم ، ولو أن الراحل كهل مات حتف أنفه ، لكن النفس الكليمة ، والأفئدة الجريحة تأبى إلا أن تفيض دائما بما فيها ، كما تفيض المآقي المقروحة المليئة بنجيات الدموع .

ذهبت مع صديق الى (السكرية) ، وما أن لفظ المقرىء (صدق الله العظيم) حتى انتفض فتى ما زلت أذكره وهو في عمامته و(كاكولته) : ضخم الأنف ، مربع الوجه ، جاحظ العينين ، وانتصب قائما ، ثم أخرج من جيبه وريقات وأخذ يقرأ في صوت عال :

أيها السادة! وددت لو أحدثكم في مناقب الراحل عن فكرة وروية ، فأخطبكم خطابة محررة محبرة ، لكن « السلطة » تمنع بالقوة الغاشمة كل تعظيم وتقض كل جمع وتأبى أي تبويب أو ترتيب ، وأخشى أن أحسب حين أجمع الكلمات وأنفذ القوافي ، أني أنظم مظاهرة أو أدبر مؤامرة فيتدخل الجند الغشوم ، لا ليطارد العدو المهاجم والجيش المتلاطم : بل ليطارد الكلام المنظوم .. واستطرد بخطاب ، والتصفيق والهتاف يشقان أجواء الفضاء .... وحتى الشيخ الذي قام يشكر المقرئين والخطيب ، ما عتم أن تقوه — فيما قصد إليه — بكلمات اقتلعت ثورة ودعو بخطاب الناس في حماس وعنف .

***

وكان خطباء الثورة من أولئكم الشبان أمثال ذلك الخطيب الشاب ، وهم أكثر ما يكونون من تلاميذ المدارس ، وطلاب المعاهد ، على أن منصة الخطابة في الأزهر لم تكن وقفاً على التلاميذ وذوي (الجاورين) ، بل كثيراً ما اعتلاها شيوخ ذوو رأي وحجا ، وكثيراً ما خطبنا علماء فضلاء وقساوسة نبهاء ، وكثيراً ما خطبنا فتيات ناهضات محجبات ، وغير محجبات ، وفي ذات يوم خطبتنا شابة ..... إلى أن قالت :

ياقوم! إن العدو يحاربكم بكل سلاح ، وأنتم عزل لا تملكون ما تدفعون به عن أنفسكم ، فهل أدلكم على سلاح لو أحسنتم استعماله ما غلبكم العدو أبداً ؟ وجعل بعض الناس يتهامسون ما ذا عسى يكون ذلك الذي تقول تلك السفيهة ؟ وضجت أصوات أخرى أن دلينا أيتها العزيزة .

قالت :سأدلكم..... ولكن من يكفل حسن طاعتكم ويضمن سداد رأيكم فيما أشير به؟ فضج الناس ثانية وارتج المكان ، لكنها استطردت تخطب فى فضل سلاحها ، وتبين مزاياه وتذكر محاسنه .

ثم أطرقت وأنصت الجمهور ونطقت بعد السكوت قائلة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوضوء سلاح المؤمن »

فتصايح الناس وازداد اصطخابهم، وكادوا ينفجرون باللعنة والعذاب على تلك الشقية ، وراح قوم يحسبونها دسيسة ، يودون لو نالوها بالمقت والأذى ، جزاء وفاقا، ولقد كاد الوقت يفلت من أيدى الزعماء والقادة ، وخشى العقلاء أن يتمخض الحادث عن أذى، لا لتلك الطفلة وحدها ، ولكن لمن معها أيضاً من الآنسات والسيدات، غير أن فتى صغيرا قد انقذ الموقف إذ اعتلى خشبة المنبر وسط الضجيج والفوضى، وصاح فى الناس أن سأدلكم على ما لم تفهموا فاصغوا إلى ، فقابلته أصوات ماذا تريد ؟ أأنت أيضا تسخر منا ؟ ألا فلتخسأ أيها الشيطان فليسقط الخطيب ، فتجاوبت أصوات أخرى يطلبون السكوت ، ولكنه تحيل بهم جميعا حتى اضطرهم للانصات، ثم قال :

الوضوء أيها السادة من باب العبادات، وقد قيل فيه« من حافظ على وضوئه كان متذكراً فرضه ، ومن تذكر فرضه لم ينس ربه ، ومن لم ينس ربه لم يخش الظلم ولا يخاف الطواغيت والأعداء ، ومن لم يخش العدو لم يمالئه ولم يعاونه »فاذا لم يجد العدو منكم معيناً عليكم أجلكم وأكبر بأسكم، وأصبح مقامه بينكم محالا ، فيرحل عنكم من غير حرب ولا عناء.

صدقونى أيها السادة أنى جاد وأن الآنسة لم تكن هازلة . . . . . فتعالت الأصوات بالاستحسان: أعد أعد! فلبى الخطيب (تصفيق حاد وهتاف متواصل)

***

كان من محاسن الصدف ، أن ذلك الفتى الخطيب ، هو خطيب تلك الليلة فازدادت مكانته فى نفسى ، وسعيت إليه حتى وثقت صلاتى به وأكدت معرفتى معه .

ثم مضت أيام مليئة بالحوادث ، حافلة بالخطورة ، وكان (الشيخ توفيق) من فتيان النهضة وحاملى لواء الجهاد ، وعلم الحرية ، الداعين إلى مجد الوطن والعاملين عليه ، تراه ينظم الصفوف ويقود الطلائع ، ويخطب الجماهير ، ويحث العامة قبل الخاصة .

ولم يكن أحدنا يعرف عن الشيخ توفيق ، إلا أنه جندى من جنود الوطن البواسل ، وأنه ولد ونشأ فى المنوفية ، وهو مدرس الآن فى إحدى المدارس الملحقة بالأزهر ، ولم نكن نعرف من أبوه وأمه ولا من هم أهله ؟ ولا على التحقيق القرية التى كان لها شرف أن أظلته سماؤها وأقلته أرضها ؛ فما كان الوقت يتسع لمثل هذه السخافات. ولما اشتعلت « الثورة » نظم

الناس أنفسهم: فهذا عامل وهذا جندى ، وذاك قائد ومدبر ، والآخر خطيب، وغيره منظم، وفى الحق أن الثورة لم تكن تحفل بالآباء والأمهات ، ولم تكن للجدود ولا العائلات ، ولا اعتبارها فى قاموسهم وقوانينهم .

قدمت لك أن السلطة كانت قد حرمت على الناس أن يتظاهروا ؛ أو يمشوا فى صفوف أو مواكب جماعات؛ لكن الناس كانوا يحتالون على هذا المنع بأن يجعلوا من الجنازات مظاهرات، ومن مآتم الشهداء محافل ، فيها يجتمعون ويخطبون وينظمون ما عسى يكون فى الغد من أعمال .

واتفق زعماء الطلبة وقادتهم مع (الحكمدار) على أن يخرج الطلبة فى مظاهرة صامتة ، يعلنون فيها احتجاجهم الصامت أيضا ،على منع المصريين من حضور مؤتمر « باريس » ،وتوسط الحكمدار فى هذا ، وخرجت المظاهرة تطوف أحياء القاهرة الهامة ، يتقدمها زعماء الطلبة مع الحكمدار فى سيارة .

ولما وصلنا إلى ميدان التوفيقية ، وكنت إلى جانب الشيخ توفيق ، وكان أن تهلل وجهه فرحا وحبورا بذلك النصر المبين الذى أحرزناه ؛ لأن المظاهرة مرت بأهم الميادين والشوارع ، وكادت تنتهى إلى غايتها بسلام دون أن يحدث مايكدر .

وبينما كانت هذه الهواجس تطوف بخاطره ، ويحدثنى بها فى بشر وانطلاق ، إذ صادفنا — عند ملتقى شارع التوفيقية بشارع بولاق — عدد من الجند البريطانى، أبى عساكره إلا أن يخترقوا المظاهرة غير حافلين ، وأراد صاحبى أن يحول دون ذلك ؛ ولكن عبثا يحاول ، فإن جواب الجند على المحاولة كان بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، فأصيب صديق إصابة بالغة ، أصابت منه القذيفة مقتلا ؛ لكنه لم يشأ أن يطاوع الضعف وأبى أن يراه الناس صريعا ، فيختل النظام ويتطور الامر إلى مالا تحمد عقباه من اشتباك الناس — وهم عزل — بالجند المدجج بالسلاح .

استبسل الفتى واستجمع قواه الواهية ، وأسند ظهره إلى عمود المصباح ، وصاح فى إخوانه أن سيروا إلى شأنكم ، ووقفت بجانبه لحظات ، أحاول أن أواسيه أو أخفف عنه، فإذا جزع والله ولا اضطرب. وجاءت سيارة الأسعاف،وحملت المصابين الى القصر العينى، وأبوا أن نرافقهم فلحقنا بهم . . . فاذا صاحبى مع ستة من زملائه فى حجرة الاستقبال ، ينتظرون الفحص الطبى . .قال الطبيب:أيهمك هذا (التظاهر) يافندى ؟ قلت نعم — قال حسنا إنه لابأس به ،ثم أردف بالانجليزية خير لك أن تذهب، فانه الآن يموت .

يموت!!! كيف !!! أصحيح ماتقول ؟ .

فحملق فى وجهى وزم شفتيه وانصرف.

ازداد النزيف ، وأخذت حال صديقي تسوء رويداً رويداً ،ثم أغمض جفنيه برهة ، وحسبنا أنه يشعر براحة ، فلزمت الصمت والتفكير ،وكنت في غاية الحرج والضيق،فأنا أرى صديقي يجود بأنفاسه الأخيرة أمام ناظري،وليس لي في إنقاذه من حيلة، وإنما يجب علي أن أبدو أمامه بمظهر الواثق من النهاية ، المطمئن إلى حاله كل الاطمئنان حتى لا أزعجه ، ثم أفاق من غشيته وقال: أأنا بخير ياترى ؟ أجبت بكل خير .... قال إذن لا بأس فاذهب فان الليل قد دخل ، وأهلك قد تخافون عليك ! قلت أتفكر في أهلي الآن ياتوفيق؟ قال ولم لا؟ قلت أترى أن أدعك هنا وحدك وأذهب لأهلي ؟ قال ما في هذا من بأس ياصديقي، ثم زاحمته الذكريات وخنقته العبرات فسالت دموعه وطلب منديله فما استطاع.

ثم قال ساعدني حتى أستريح،ولما عاونته قال والله إني لشديد الوجع ؛ ولكن ماذا قال الطبيب؟ قلت قال خيرا ماعليك من بأس ،فأطرق وقال يستوي ياصديقي ... وبكى ، قلت ماذا يستوي ؟ قال الحياة والموت، قلت وما شأنك بالموت، وأنت معافى بحول الله وقوته؟

قال : آه إني الآن أموت ، وبكى فبكيت .... قال وأنت ماذا يبكيك ؟ إنما أبكي على شيء واحد .... أبكي لأني أموت والعدو في مصر باق، أما أنت فيالحظك السعيد ستبقى حتى ترى ذلك اليوم ... الذي طالما تمنيناه .... وخنقته العبرات وغشيته من الموت غاشية .

وحضر الطبيب ثانية ، وأشار إلى مساعده وخدم المستشفى إلى حجرة الخطر .

فأخذ النساء يحملن المصابين حيث لا حراك ولا حياة فيهم . . . إلا بعض أنفاس تروح وتجيء ، وصدور تعلو وتهبط ، إذا كان هذا من الحياة في شيء .

ذهبنا إلى حجرة الخطر ولم يكن معي من غير المصابين أحد . . . ووقفت بجانب صديقي أترقب الساعة التي أخشاها ، وأنتظر الموت الذي أرهبه . . . وكان صديقي يئن أنيناً خفيفاً مزعجاً ، ثم أخذ يتحشرج وأنفاسه تضيق وروحه تضطرب،وقد مات الذي إلى يساره والذي إلى يمينه أيضا .

أما هو فما زال حياً .... طلب ماء فلما شرب قال آه .... ما أعذب ماء النيل وأحلاه .... لكن ما أحلى ذلك اليوم الذي يخلص فيه النيل لمصر . . . !

ثم التفت إلي وقال في صوت يشبه صوت الأحياء : اسمع ياصديقي اوصيتي الأخيرة .. قلت لا تمزح..قال إني لا أمزح: مصر ...وصيتي ... والسودان ...لاتنس السودان ياصديقي ...قل لهم لا تنسوا السودان. وكانت هذه الكلمة هي النفس الأخير من حياته !؟

محمد السيد